الظاهرة الإنسانية بين الفهم والتفسير

د. زيد الخير حورية(*)

مقدمة

لقد ظهرت العلوم الإنسانية كعلوم مستقلة حديثا، حيث تعتبر كل من الدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية دراسات علمية تدرسها علوم قائمة بنفسها.

إلا أن المتتبع لتطور الفكر الإنساني يلاحظ أن هذه العلوم لم توجد مستقلة بذاتها، وإنما نشأت جميعها من رحم واحد ألا وهو الفلسفة. ولكن وبالرغم من أن هذه الدراسات اكتست صفة العلمية إلا أنها لازال يشوبها الشك وكذا الارتياب في نتائجها نظرا لعدة عوامل أهمها أنها ظواهر تدرس موضوعا هو الإنسان الذي يكون في أحد مراحل الدراسة العلمية دارسا ومدروسا معا. من هنا كانت إشكالية الموضوعية في دراسة الظاهرة الإنسانية، وما مدى نجاعة المناهج المتبعة في دراسة هذه الظواهر؟ وما هي العوائق التي تحول دون الدراسة العلمية للظاهرة الإنسانية؟ وما الواجب اتباعه من أجل معرفة جوهر وحقيقة هذه الظواهر الإنسانية؟ هل هو فهمها؟ أم محاولة تفسيرها؟

١- الظاهرة الإنسانية خصائصها وإشكالية الموضوعية فيها

أ- المفهوم:

تعزى مفردة الظاهرة الإنسانية إلى كل واقعة يقوم بها الإنسان سواء كانت نفسية متعلقة بأحوال النفس ومداركها العقلية، أو اجتماعية متعلقة بسلوك فردي أو جماعي يظهر داخل المجتمع، أو تاريخية متعلقة بالزمن تحدد فعلا إنسانيا ما في مرحلة معينة من الزمن.

(*) جامعة وهران ٢، الجزائر.

ب- الخصائص:

ما تمتاز به الظواهر الإنسانية أنها ظواهر فريدة من نوعها غير قابلة للتكرار، فما يستخلص من دراسة ظاهرة واحدة يصعب تعميمه، ذلك أن الملاحظة في الكثير من الأحيان تصبح غير متيسرة في هذا الميدان فالحوادث لا تشغل حيزا معينا يمكن أن نراقبها فيه، إنها حوادث زمانية لا مكانية، مع الأخذ بعين الاعتبار التفريق بين الزمن الفيزيائي الذي ينعكس على نفسه ومن صفاته أنه يتكرر، والزمن النفسي الذي يمضي ولا يعود.

فالظواهر الإنسانية تمتاز عن الظواهر الطبيعية تميزا منهجيا حاسما «فالوصف والتفسير والتنبؤ، وكذلك التحكم تمضي كلها على خط متصل في العلوم الطبيعية، فما وصفناه وفسّرناه إنما يعني التنبؤ بحدوثه على النحو الذي وصفناه وفسّرناه به»[1] ذلك أن هذه الظواهر تميل إلى التكرار والاطراد « فبينما يأتي التفسير والتنبؤ في العلوم الطبيعية في سياق استدلالي مباشر يأتي التفسير والتنبؤ في العلوم الإنسانية على مرحلتين، فلا يصبح التنبؤ مجرد نقل التفسير من الماضي إلى المستقبل، بحيث أن ما حدث لا بد أن يحدث كما هو الحال في العلوم الطبيعية، فليس التحدي الأساسي للعلوم الإنسانية أن تنظر إلى الوراء، لأن فيه ما يمكن لأي تطور سابق أن ينتظم في أي مخطط لاحق إذا ما كان عاما بقدر كاف»[2].

إن صفة وجود الظواهر الطبيعية بعيدة مستقلة عن الذات العارفة، مكنت العلوم الطبيعية عند نشأتها من تقديم شرط الموضوعية الذي ساهم في إضفاء صفة المصداقية واليقين على نتائجها، وانطلاقا من هذه النتائج حاول الدارسون لموضوع الظاهرة الإنسانية تطبيق هذا النموذج العلمي بهدف إنتاج معرفة علمية يقينية عن الإنسان، وقد تم تبني هذا الموقف من قبل النزعة الوضعية التي سعت إلى تطبيق المنهج التجريبي على الظواهر الإنسانية ودراستها دراسة موضوعية بالرغم من كافة الصعوبات التي تقترن بهذه العملية «فمن الصعب جدا أن نكشف عن العوامل أو العلل الفاعلية المنتجة لهذه الظواهر أو تلك، ولكن يجب أن نحاول استخدام هذا المنهج قدر المستطاع وأن نعبر عن نتائجه بدقة قدر الإمكان، وذلك باستخدام

(١) د صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، ٢٠٠٧، ص ٣٩.

(٢) المرجع نفسه، (ص ص/٣٩٥، ٣٩٦).

طريقة الإحصاء، وهي طريقة تقوم عادة على حساب الاحتمالات لأننا لا نستطيع أن نعين أشياء دقيقة كمية ما دمنا بإزاء ظواهر لا يمكن أن تخضع للكم إلا بعسر»[١].

وكثيرا ما تتهم الدراسات الإنسانية بغياب الموضوعية عنها، ذلك أن الدارس والمدروس في مرحلة معينة من البحث الذي يراد منه تطبيق المنهج التجريبي يصبحان واحدا، فالإنسان هو الملاحظ والملاحظ أيضا «فالسلوك الاجتماعي للإنسان يتأثر بعملية البحث نفسها، ومعنى ذلك أن المبحوث إذا عرف أنه ضمن مجموعة من الأفراد في تجربة ما، فإنه من المحتمل أن يتصرف بطريقة مختلفة، تمام الاختلاف عن صورته الحقيقية، وذلك بهدف إرضاء الباحث، أو أنه يعتقد أن الباحثين يريدون منه أن يقوم بهذا التصرف»[٢].

وهذا ما عبر عنه كلود ليفي ستراوس في كتابه الأنثروبولوجيا البنيوية حيث قال: «يكمن شقاء العلوم الإنسانية في أن الإنسان لا يستطيع أن يتجاهل ذاته»[٣].

٢- منهج التفسير في دراسة الظاهرة الإنسانية

إن المقصود بالتفسير هو الكشف عن العلاقات الثابتة القائمة بين حادثتين أو أكثر وإقامة علاقات سببية بينها، وقد ارتبط منهج التفسير بالاتجاه الوضعي مع الفرنسيين مارسيل موس وإميل دوركايم، حيث بحث هذا الأخير في ظاهرة الانتحار، وطبق عليها التفسير الموضوعي، وانتهى إلى أنها تتحدد بعوامل موضوعية تتمثل أساسا في التماسك الديني، والتماسك الأسري، والتماسك السياسي.

وبناء على جملة من الإحصائيات حول هذه الظاهرة في عدد من الدول الأوروبية فقد خلص إلى أن معدلات الانتحار تتناسب عكسيا مع درجة التماسك الديني، فينتحر البروتستانت أكثر من الكاثوليك، ومع درجة التماسك الأسري حيث يقدم على الانتحار العازبون قبل المتزوجين، والمتزوجون بدون أطفال أكثر من المتزوجين بأطفال، وأيضا مع درجة التماسك السياسي إذ أن معدلات الانتحار ترتفع نسبيا في فترات الهدوء والأمن أكثر من فترات الحروب والنزاعات.

---

(١) د عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات الكويت، ط ٣، ١٩٧٧، ص ٢٢٦.

(٢) د محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي عربيا وعالميا، مكتبة الأنجلو مصرية، ط ١، ٢٠٠٩، ص١٥٦.

(٣) كلود ليفي ستروس، الأنتروبولوجيا البنيوية، ترجمة د مصطفى صالح، منشورات دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣، دون طبعة ودون سنة الطبع، ص ٤٣٠.

وتجدر الملاحظة إلى أن هذه الدراسات بقدر ما اقتربت من الموضوعية بقدر ما أهملت العنصر البشري أو الإنساني حيث تعاملت معه كما لو كان جمادا.

حيث يقول دوركايم: «ليس من الصحيح أن النشاط الإنساني يمكنه أن يتحرر من كل وازع، فما من شيء في هذا العالم يستطيع أن يحظى بمثل هذه الميزة، لأن كل كائن بوصفه جزءا من الكون، فطبيعته والطريقة التي يظهر بها لا تتعلق إذن به وحده، بل بكائنات أخرى تحتويه وتضبطه في المحصلة، وفي هذا الصدد ليس ثمة سوى فروق في الدرجة وفي الشكل بين الجماد وبين الإنسان المفكر، فما يميز الإنسان عن الجماد، هو أن الوازع الذي يخضع له ليس فيزيائيا، بل أخلاقيا أعني اجتماعيا، فهو لا يتلقى قانونه من وسط مادي مفروض عليه بقوة بل من ضمير يفوق ضميره»[1].

إلا أن المتأمل في هذا التفسير يجد أن فيه إفراغا للظاهرة الإنسانية من فحواها وأهم مكوناتها وهي الدلالات والنوايا والمقاصد، حيث يتم الاكتفاء فقط بالمحددات الخارجية للفعل.

فالكثير من الظواهر الإنسانية قد وقف التفسير الموضوعي عاجزا أمامها كحالة مريض القلب الذي تغيرت أحواله النفسية وانطباعاته وميولا ته ورغباته مباشرة بعد إجرائه لعملية زراعة قلب، كذلك لن يسعفنا هذا المنهج لوحده في فهم ظاهرة مستفحلة هي ظاهرة الإرهاب، إذ أن إرجاعها إلى أسبابها كدور السلطة الدينية والسياسية والمثقفة في ذلك، لا سيما وأن لهذه الظاهرة أوجها وأشكالا عدة.

من هنا كان المنهج الثاني في دراسة الظاهرة الإنسانية وهو منهج الفهم.

٣- فهم الظاهرة الإنسانية والشروط الابستمولوجية الثلاثة للفهم

إذا كانت العلوم الطبيعية تهتم بالوقائع الطبيعية، فإن العلوم الإنسانية تهتم بالوقائع الإنسانية التي تختلف عنها اختلافا كبيرا، ذلك أنها من انجاز فاعل بشري له مقصد وغاية وهدف من وراء قيامه بالفعل «فوقائع العلوم الإنسانية هي وقائع غير مباشرة تتمثل في المعاني

(١) أميل دوركايم، الانتحار، ترجمة حسن عودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١، دون طبعة، ص ٣١٨.

والمشاعر والأفكار التي ينفذ إليها وراء ما هو حسي نفاذا كيفيا، ووقائع العلوم الطبيعية تخضع للتفسير الذي يحاول بيان العلاقات الخارجية بين الوقائع، أما وقائع العلوم الإنسانية فتخضع للفهم الذي ينفذ إلى المعاني الباطنة داخل الأشياء»[١].

ولما كان الفاعل الإنساني يمنح دلالات لأفعاله وللعالم من حوله، ويسلك وفق غاية من حيث هو كائن واع، ذلك أن «الفهم في العلوم الإنسانية داخلي يتجه نحو الخبرة البشرية ويفحص محتواها ويترتب على ذلك أن الخبرة مرتبطة مباشرة بالحدس والتعاطف، أما الظواهر الطبيعية فهي مدركة بالحواس، ومن ثم كان الاستبطان الذاتي والفهم ملائما للأولى، أما التجربة والتجريب فهي الطريقة المناسبة للعلوم التي تعالج الطائفة الأخرى من الظواهر»[٢].

وكذلك الحال بالنسبة للعامل في حقل العلوم الاجتماعية فانه لا بد أن يعمل على تطوير «فكرته عن الموضوع أو الظاهرة من خلال تصور ذاته داخلا في الموضوع أو جزءا منه، ويجعل من التفسير أو التأويل التعاطفي قنطرة تصل بينه وبين الآخرين، فينفذ إلى المعنى من خلال نوع من الخبرة الحدسية، وهكذا تكون غايته كيفية لا كمية بأي حال من الأحوال»[٣].

وبالرجوع إلى الظاهرة السابقة وهي ظاهرة الإرهاب، وبالنظر إلى التجربة الجزائرية الناجحة في التعامل مع هذه الظاهرة، سواء على المستوى المحلي أو الدولي، لا سيما فكرة السلم والمصالحة الوطنية التي نادت ودعت إليها القيادة الرشيدة للدولة، والتي تم استفتاء الشعب الجزائري حولها، لم تكن بالعمل السهل والهين، خاصة بالنظر إلى الكثير من عائلات ضحايا الإرهاب التي تضررت جراء تلك الممارسات الشنيعة.

ومع استحضاري لأحد الحوادث المؤلمة والتي تم خلالها ذبح مجموعة من المعلمات العائدات من مكان عملهن من قبل رئيس جماعة إرهابية قبل إقدامه على الفعل الشنيع وقد خاطبهن قائلا: «ألم نقل لكن ألا تدرسن» أعود إلى جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبالذات إلى جهود العلامة عبد الحميد بن باديس الذي وقف طويلا عند مسألة تعليم الفتيات، والذي نظر إليها

(١) د أحمد عبد النور وآخرون، قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د ط) ودون سنة الطبع، ص ٢١.

(٢) د عبد المعطي محمد، د محمد علي محمد، منهج جديد للدراسات الإنسانية محاولة فلسفية، مكتبة مكاوي بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص ٨٠.

(٣) المرجع والمكان نفسه.

من جانبين من كونها معلمة ومتعلمة، وكيف تناول الحديث النبوي الذي جاء فيه «لا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل وسورة النور» وكيف فنده استنادا إلى ما جاء في أعماله ﷺ أنه كان يضع للنساء يوما يعلمهن فيهن أمور دينهن ودنياهن، كما استدل على حادثة تولية الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشفاء أمر السوق، وذلك لدرايتها بالقراءة والكتابة.

إن الكثير من الظواهر الإنسانية يمكن دراستها من خلال دراسة وفهم الفعل البشري ومقصده وتأويله.

ولا يمكن فهم الظواهر الإنسانية دون توفر مجموعة من الشروط الإبستمولوجية والتي منها:

١- **شرط الألفة بالطبيعة الإنسانية**: ذلك أن الانتماء إلى نفس الطبيعة الإنسانية يساهم في تقارب وجهات الألفة بين الأفراد «فالانتماء غلى نفس الطبيعة يجعل الفهم ممكنا وميسورا...ونحن لا نفهم بعضنا البعض في الآن الحاضر وحسب، بل غن هذا الفهم يمتد إلى البدايات الأولى للتاريخ»[١].

٢- **شرط معرفة الخلفية الثقافية**: «ويقصد بها الألفة بالقواعد والاصطلاحات التي تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات، فنحن لا نفهم الجملة بدون معرفة قواعدها، وتركيباتها، ودون معرفة اللغة بوجه عام، غير أن الخلفية الثقافية يمكن أن تشير إلى أكثر من هذا...وبديهي انه كلما كان إلمام الإنسان بالخلفية الثقافية كبيرا كلما كان فهمه أعظم»[٢].

٣- **شرط الوعي بالسياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات**: «وهذا شرط واضح وضوحا لا لبس فيه...إذ تعتبر التعبيرات الوسيلة الوحيدة التي يحدث الفهم من خلالها..وللتعبير وظيفتان هما الكشف عن حالتنا العقلية والشعورية، وإحالتنا إلى شيء له معنى، أو إلى حادثة يشير إليها ويمثلها»[٣].

فدراسة العلوم الإنسانية كلما اقتربت من منهج الفهم كلما أصبحت هذه الدراسات مبدعة ومنتجة أكثر لأنها ستكشف في كل مرة عن إمكانات الكائن الإنساني وفرادته وتميزه.

(١) المرجع نفسه ـص ٢٢.
(٢) المرجع نفسه ص٢٣.
(٣) المرجع والمكان نفسه.